

الدرس السابع والعشرون: الولاء والبراء

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة الأعرز والأذل، أخرج مسلم بسنده عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ   قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: "دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَةٌ - فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَالٍ فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ، قَالَ عُمَرُ: دَعْنِي أُضْرَبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ: "دَعُهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنْ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ" (1). فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (8) [المنافقون: 8].

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار، فتبرأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أذن له فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي: يا رسول الله، إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ولكن برأباك وأحسن صحبته" - (26).

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ

(1) (صحيح) أخرجه (م) 2584.

وَإِخْوَانِكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) { [التوبة: 23].

هذا هو الولاء لأهل الإيمان والبراء من أهل الكفر والعصيان، فالولاء أصله الحب، والبراء أصله البغض، والولاء والبراء يمثل صورة عملية من صور التطبيق الواقعي لعقيدة التوحيد، ولا يصح للمؤمن دين إلا بموالاتة أهل التوحيد، ومعاداة أهل الضلال والبراء منهم.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران: 118].

وفي الآية تحذير للمؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء بإطلاعهم على أسرارهم، فهؤلاء لا يفترون عن إفساد حالهم، وهم يفرحون بما يصيبهم من ضرر ومكروه، وقد ظهرت شدة البغض في كلام الكافرين، وما تخفي صدورهم من العداوة للمؤمنين أكبر وأعظم.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ: "أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ - قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "الْمُؤَالَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ - (1).

إخوتي في الله، ينقسم المسلمون في معاملة الكفار لثلاثة أقسام وهم:
القسم الأول: ناصر لدين الله، مجاهد في سبيل الله، موال لأوليائه، معاد

لأعدائه، وهم القليلون عدداً، الأعظمون أجراً عند الله.

القسم الثاني: خاذل لأهل الإسلام تارك لمعونتهم معتزل عن الكفار.

القسم الثالث: خارج عن الإسلام بمظاهرة الكفارة ومناصرتهم بالقول والعقل والاعتقاد، ومعاداة أهل الحق ومحاربتهم (23).

ولقد نهى الله أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا أن يكون المسلم مقهوراً قال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

(1) (صحيح) أخرجه (طب) وصححه الألباني في ص. ج برقم 2539.

دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) {آل عمران: 28}.

فنهى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحاب من دون المؤمنين وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء وقال ابن جرير الطبري في قوله تعالى {فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} أي فقد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله الكفر، وقوله تعالى {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} أي إلا أن يكون المؤمن مقهوراً معهم، لا يقدر على إظهار عداوتهم، لتعذيبهم له، فيظهر لهم الرضا بلسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان بالله، ممتلىء بالعداوة والبغضاء لأعداء الله (23).

ولقد نهانا الله تعالى عن موالاته أهل الكفر قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [المتنحة: 13]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51)} [المائدة: 51].

وقال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله تعالى: والصواب القول في ذلك عندنا أن يقال: أن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين وأن الله ورسوله منه بريئان أ.هـ (23).

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57)} [المائدة: 57].

وينبغي أن نعلم أن الموالاته عند علماء الاصطلاح شيء والبر شيء آخر، فدعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة بعض الكفار، والبر بهم لا يعني الموالاته لهم، فبسماحة الإسلام يتعامل المسلم مع الناس أجمعين على أساس العدل والاحترام المتبادل بدون محبة القلب للكفار أو مودة ما هم فيه من كفر (23).

وينبغي الحذر كل الحذر من الاعتداء على الذميين والمعاهدين فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو ۞ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا - (1).

وهناك استثناءات لا تنقض أصل البراءة من الكافرين، فلا تعني البراءة من الكافرين حجب دعوة الإسلام عنهم وتركهم لما هم فيه من ضلال بل يحتم الإسلام على أهله دعوة الناس إلى الخير وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)} [النحل:125].

ولقد أحلَّ الشرع الزواج بالكتابية - أي اليهودية أو النصرانية - وأكل ذبيحة الكتابي فيجوز الأكل من ذبيحتهم وزواج نسائهم، ولا شك أن المودة التي تكون في قلب الزوج لزوجته هي من المودة الفطرية المستثناة.

وكذا الإحسان إليهم والبر بهم قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8)} [المتحنة:8]، ويدخل في البر عيادة مرضاهم وقبول هداياهم والإهداء لهم والدعاء لهم بالهداية.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ فَرِيثٍ إِذْ عَاهَدَهُمْ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: "نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ - (2).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(1) (صحيح) أخرجه (خ) 2995.

(2) (صحيح) أخرجه (خ) 2477، و(م) 1003. واللفظ لمسلم.